الفصل الثاني
رحلة في أعماق الحكم والأسرار

المبحث الأول : مرحلة الإعداد.
المبحث الثاني : الرحلة والأثر.

obeikandl.com

obeikandl.com

رحلة في أعماق الحكم والأسرار

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[1].

إبراهيم عليه السلام أبو الملة الحنيفية نادانا من السنين الأولى بالمسلمين، ولم يكن لنا من قبل سمياً، فلا عجب أن تتوطد بينه وبين المؤمنين علاقة روحية تتجدد خمس مرات في اليوم والليلة في صلوات تؤدَّى. وتتوج هذه العلاقة في محفل كل عام يقام في أشهر معلومات لإحياء ذكرى أصل من أصول كياننا الروحي من خلال عدة مناسك، كل منسك منها يؤدَّى دوراً في تشكيل وجدان المسلم في رمزية تفوق الزمن المحدد لتنبسط فوق مساحة العمر.. وفي شمولية لكل ما يؤثر على النفس والروح في السلوكيات الفردية والجماعية.. ولنتدبرها الواحدة تلو الأخرى لنرى الفعل والمدلول والأثر عبر رحلة في أعماق الحكم والأسرار.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

obeikandl.com

المبحث الأول

مرحلة الإعداد

وأول ما يبدأ به المرء أعمال الحج هو:

- إعداد النفس وتهيأتها للأداء.

- إعداد الظاهر وتعهده بقياس القدرات الثلاث الصحية والمالية والأمنية.

أما إعداد النفس فأول ما تبدأ به عقد النية لله تعالى على أداء فريضة الحج استكمالاً للركن الخامس، واحتساباً لله تعالى، لا بقصد المباهاة، ولا بغية نوال لقب تتصارع من خلفه أطماع ابن آدم. ثم يهيىء المرء نفسه لشرف الضيافة وتلبية الدعوة الربانية. أمَا تقول لبيك اللّهم لبيك.. فلا بد وأن تسبقها دعوة هي التي جعلتك أيها المؤمن وأيتها المؤمنة تنصهران في بوتقة إيمانية تجعل قلبكما معلقاً قبلكما بالبيت. لقد توجه قلب المؤمن لهذه الدعوة الربانية قبل أن تنتقل الأبدان، وما دام الأمر يتعلّق بالاصطفاء استعداداً لموقف عظيم، فتعظيماً وإجلالاً للداعي، ورهبة وهيبة من المضيف الكريم، علينا أن نخلص من آثامنا بالتوبة النصوح إلى الله لنمهد الطريق كي تعرج الروح دون عوالق الدنيا.

علينا أن نخلع ثوب الكبر فنرد للمظلوم مظلمته، ونعلن السلام والاستسلام والصفح الجميل، ونصل الرحمٰن في أرحامنا، فلا تقف عداوات الدنيا حائلاً دون نوال لحظ رضاه.

وأما إعداد الظاهر...

فالمقصود به مقياس القدرات الثلاث الصحية، والمادية، والأمنية.

القدرة الصحية:

فمن المعلوم أن العافية رزق من الله، ونعمة من نعمه، من ابتلي بالحرمان منها، أو بشيء مؤثر فيها كفله الله برحمته، ومن أحنى على ابن آدم من رب رحيم

عالم بمن خلق، لذا شَخَّص له عين الكرم بعفو عن أداء سائر التكليفات. فلا صلاة إلا بقدر استطاعته ولو بقلبه، ولا صوم ولا حج حتى يزول المانع ويرتفع العذر. كذلك شرع له البدائل، تحقيقاً للرعاية وإمعاناً في المحافظة عليه. فكان المسح، وكان التيمم وكان الإطعام وكان النائب. وقد شرعت النيابة في الحج دون سائر التكليفات الأخرى.

ومن الرحمات التي لا يتصل بمغزاها إلا صاحب قلب سليم ما ورد من أن بعض العباد يجدون في صحائفهم يوم الحساب أعمالاً من الخيرات مسجلة لم يعملوها. فيقال لهم إنها كانت مجرد نيات صادقة عزموا على فعلها إذا توفرت لهم إمكانات عملها. فلما عجزوا عن الأداء كتب الله بفضله ثوابها لمجرد العزم الأكيد والنية الصادقة. فلا غرابة أن يدعو الله محروماً إلى بيته فيرفل بقلبه ويحرم بوجدانه. إن الله وحده أقدر على تيسير أمور خلائقه.

نخلص من ذلك إلى أن القدرة الصحية الممثلة في سلامة المسلم مما يعجزه عن القيام بفرائض الحج وواجباته تعد مبرراً لسقوط الفريضة إن لم يرج البرء، ولم يجد نفقة الوكيل عنه، وكذلك مبرراً لتأخيرها إن تأمل الشفاء، وذلك حرصاً على سلامته وسلامة المسلمين أيضاً، وسيأتي حكم ذلك في شروط وجوب الحج.

أما القدرة المالية:

فتعني طاقة المسلم المادية، وهل لديه المال اللازم للانتقال سواء بالطائرة أم بالباخرة؟ والسكنى والمأكل والمشرب. وإن وجد فهل يكفيه ويكفي من يعول إلى أن يعود؟. وإن كان فما بقي إلا أن يتحرى الدقة في اختيار كل درهم حلال من مال لا غش فيه ولا شبهة ربا، ولا حق يتيم أو امرأة، ولا أمانة لها صاحب استودعه إياها. وليكن أجر عمل مخلص لله تعالى، وعرق كد قصد به خير الجماعة. أو ليكن إرثاً حلالاً ليس فيه حق للغير سواء أكان موصى له، أو وارثاً، أوغير ذلك من طرائق الكسب الحلال.

فما أعجب من مسافر بنفقة كل درهم فيها بريء منه يصرخ معلناً حق مقهور، أو قوت معوز، أو عيش يتيم، ولمن سيفد؟ إلى رب البرية العادل الذي يمهل الظالم ولا يغفل عن المظلوم. ولا حج لمن عليه دين لله تعالى أو لآدمي،

ولا حج لمن وجبت عليه النفقة إن لم يكن لديه فائض يفضل عن حاجة من يعول. بل لو لم يكن معه من المال سوى ما يكفي لحج أو زواج وخشي على نفسه الوقوع في الفاحشة إن لم يتزوج قدم الزواج على الحج.

ومن بذل له إنسان نفقة حجة تبرعاً لا يجب عليه إلا إن كان التبرع من ابن لأنه لا منّة للولد على والده، وسيأتي حكم القدرة المالية في شروط وجوب الحج.

أما القدرة الأمنية:

فهي الممثلة في أمن الطريق بأن يأمن الحاج على نفسه وماله، وألا يترتب على حجه ضرر كالوقوع في يد سلطان جائر، أو إيذاء وفتنة كما لو حجت المرأة بمفردها.

وقد تحرز الفقهاء من ذلك فزادوا على التكليف بالنسبة للمرأة بأن اشترطوا لها المحرم الشرعي، أو الصحبة الآمنة.

الاستعداد بالباطن والظاهر معاً:

يغتسل المؤمن كي يتطهر من أوزار الدنيا برفع كل مستخبث من بطش وتجبر وغيبة وتسلط، وليحرم برداء أبيض متجرداً من كل خيلاء وزيف استعداداً للانتقال من عالم الرتب والمناصب والمقاعد إلى مقامات التوحيد، ورهبة الالتزام كقطرات ماء في يم زاخر لا تستبين إحداها ولا تطفو بغير انفصال. فيعظم الإجلال والمهابة وتبرز الحكم السامية من وراء هذا الإحرام، فتنحني الهياكل الترابية، التي هي مادة هذا الإنسان اعترافاً بجلال الداعي، واستجابة لدعوته.

المبحث الثاني

الرحلة والأثر

والمتأمل لجليل الحكم في رحلة الحج يجد أنماطاً شتى، وطرائق عدة تعرج من قاعدة واحدة هي الحج، فلا أدري بأيها أبدأ.

أهي رحلة الحياة أم رحلة الموت، أم رحلة الإيمان أم رحلة الإسلام، أم رحلة الأمان والسلام، أم رحلة التعارف، أم رحلة التلاحم والانصهار، أم أنها كل ذلك معاً؟ فتعود هذه الحزمة المشعة لتلتقي في قلب المؤمن ثانية. ذلك الذي أدرك روح العبادة بفطرة خالصة، فقد جاء طائفاً ليدخل مقام إبراهيم عليه السلام حساً ومعنى. ومن تفضل الله عليه بالدخول في المقام حساً ومعنى أشهده ملكوته الأعلى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾[1].

وما دام القلب وعى ـ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[2] ـ فقد حان الاستعداد لنجول في عالم الحكم في دعة وسكون يليق بقدسية الرحلة.

ولكم استوقفني قوله تعالى لموسى عليه السلام وهو يعده لمناجاته: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾[3].

الحج رحلة الحياة:

تبدأ من حيث ينتهي الحاج، لكنه يعايش دقائقها قبل. فهي رحلة حياة بما فيها من حركة وأسفار وتجوال وتضحيات.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

(٢) سورة البينة، الآية: ٥.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢.

رحلة حياة بما فيها من يقظة وتوبة وندم ونقاء وصفاء، وحط للخطايا والآثام، واستزادة من العبادات والطاعات والحسنات بالإكثار من البر في مواطن يضاعف فيها عطاء الله ورضوانه.

رحلة حياة تحول المقروءات والمسموعات عن هاتيك المجالات إلى واقع مشهود.

الحج رحلة موت:

ومن العجيب أن يكون الحج رحلة موت وخروج من دائرة الزمن الدنيوي إلى حقيقة الفناء، تبدأ بالغسل الذي يمثل إحدى سنن الإحرام، وتكفين يتمثل في ملابس الإحرام، وصلاة تتمثل في ركعتي الإحرام، وتجرد عن متاع الحياة يتمثل في الانقطاع عن أمور ضمنها الشارع في تكليف سالب يسمى بمحظورات الإحرام، وتشييع يتمثل في وداع الأهل والأحباب، ثم توجه إلى الله ولقائه يتمثل في معنى التلبية، وحشر عام للحساب والجزاء، حيث يصدر الناس جميعاً وقد شخصت أبصارهم وتعلقت أفئدتهم على فوهة حناجرهم يرجون القبول ويخشون الطرد. لا فوارق ولا نعرات لا تفاخر بجلدة ملونة، لا دنيّ، ولا عليّ، لا فقير ولا غني، لا شيب ولا شباب، الأكرم هو الأتقى، والعمل الصالح هو الأبقى، كل واحد يواري سوأته الظاهرة والباطنة، منشغلاً بهمّه وإثمه عن غيره. كل هذا متمثل في عرفات حيث تتواءم الدعوات والعبرات. إنها رحلة تجريبية للموت، غير أنه بعد الحج عودة للأهل والأحباب. وفي ذلك عظة وتذكرة بيوم ليس منه للحياة مرد. فقد ترك الأهل والأصحاب والأولاد، ثم إليهم رجع وعاد. فليعدَّهم إذن بعد هذه التجربة لساعة يفارقهم فيها ليوم الميعاد. وليحتط لنفسه بعد في رحيله الأبدي بخير زاد، فالعود هذه المرة أمل لا رجاء فيه، والحساب قادم في يوم حق لا ريب فيه.

الحج رحلة إيمان:

فلئن وضحت الحكمة في كثير من جوانب هذا النسك العظيم فليؤدها المحرم وهو على يقين ببعض حكمها وأسرارها وفوائدها، فإن هناك إلى جانب ذلك المعلوم جوانب أخرى وأعمالاً عديدة تؤدى تعبداً دون الوصول إلى شيء من حكمتها وأسرارها. وهذا لا يتأتى إلا ببديل. وليس البديل هنا سوى الثقة

المطلقة والتصديق الكامل بكل ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه ﷻ من قول أو فعل. وذلك التزاماً بالأمر الصادر من نبي هذه الدعوة المتمثل في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، وقول الرسول ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**». حيث يتابع المؤمن قائده العظيم سيدنا محمد ﷺ بكل الثقة، وبكل اليقين، ودون نقاش أو تحكم عقلي أو قياس فلسفي أو منطقي. إنه الإيمان والإنقياد والإذعان الذي يعبر عنه الحاج في أول طوافه: اللَّهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة رسولك ﷺ. إنه الإيمان فقط بل إنه ليساوي الإيمان بالغيب الذي هو قمة الإيمان، والذي جعله الله وصفاً وتعريفاً للمتقين: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾[2].

الحج رحلة إسلام:

إذعان وانقياد لإله واحد. فالإسلام في أبسط تعريف له هو: إخضاع الجوارح وتطويعها بالطاعات والعبادات على وفق ما أراد الشارع.

فإذا قارنا فريضة بغيرها من الأركان لوجدنا أن المسلم قد كُلِّف بالصلاة والصوم والزكاة في مكانه وحيثما كان.

أما ركن الحج فقد ارتبط بأماكن مخصوصة لا توجد في أي بقعة من العالم إلا في بلد الله الأمين مكة المكرمة. فكان لزاماً على المؤمن أن ينتقل إليها تاركاً الأهل والأوطان، محتملاً جميع المشاق والمصاعب. هذا النموذج المتفرد من الحركة والأسفار الذي تميزت به فريضة الحج على ما عداها من الأركان يمثل حقيقة إسلام الوجه للنداء، والدعوة إلى أرض هذا النسك بكل ما يكتنف الموقف من تضحيات ومشاق ونفقات. هذا التطويع، وهذه الطاعة، تمثل الصورة الحية لمعنى الإسلام الذي تلبس به المسلم سعيداً راضياً قائلاً: (لبيك اللَّهم لبيك). ويظل الحاج في سفرته هذه مصطحباً كل مواقع السلام ومواقف التسليم في

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٥.

أعماق التاريخ، حين سلّم نبي الله وخليله إبراهيم وأسلم لوجه ربه ﷻ في ولده إسماعيل وأمه هاجر، وتركهما بأمر الله في واد غير ذي زرع عند بيته المحرم، وكذلك حين أسلمت هاجر قيادها إلى بارئها، ورضيت بما أمر، وحين أسلمت وجهها وطفلها لله ﷻ عندما كاد أن يقتله الظمأ.

وحين أسلم إبراهيم وابنه عليهما السلام لتضحية الفداء، إبراهيم بفلذة كبده وقرة عينه، وإسماعيل بنفسه وروحه تنفيذاً للأمر الرحلة والأثر، وقربى إلى الله، ومعونة لأبيه على طاعة ربه.

ومن منطلق هذا التاريخ النابض بالإسلام والتسليم إلى الفعل الواقع في مناسك تؤدى طاعة لأمر الله، واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ تتأكد مسيرة رحلة الإسلام ليبقى الدين خالصاً لله وحتى تقوم الساعة.

الحج رحلة أمان وسلام:

قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾[1].

نعلم أن للحج زمناً مختاراً جعله الله في الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب قد جاء ذكرها في القرآن الكريم. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[2]..

وما ذلك التخصيص وما هذا التحديد إلا لكي ينعم كل من قصد بيته بالأمن والسلام. فالأشهر الحرم ساتر زمني لكل نزغ شيطاني يغذي غرور النفس البشرية لكي تستبيح حرمات وحقوق غيرها، فلا قتال ولا سفك دماء. ولم يقتصر الأمر على القتال فقط. وإنما عمد إلى تهيئة نفوس زائري بيته بغرس السلوكيات الفاضلة من وداعة وسكينة وحسن معاشرة وجمال خلق وصفح جميل وصبر، محذراً من كل ما يعكر صفو الموقف من جدال وإثارة فتن ومسببات غضب، فليس الأمان من القتال والحرب فقط، وإنما أيضاً من كل ما يمس مشاعر

(١) سورة قريش، الآيتان: ٣ ـ ٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

قاصدي البيت، فجاء التأكيد على ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾(١).

ولو تأمّلنا بعض التكليفات على بساطتها لوجدناها مرآة صافية تعكس مقصود الأمن والأمان. فقص ظفر، وإزالة شعر واغتسال استعداداً للدخول في الإحرام، وما هذه التهيئة إلا بقصد توفير الأمن للحجيج، ولا يدرك فضائل الأمن والسلامة من هذه الجوانب إلا مجرب صادفه مهمل أو مخالف لهذه التكليفات البسيطة، حين تناله الإصابة في مواطن الازدحام والالتحام من ظفر ينكأ رأسه، أو يشج وجهه، أو يدمي له قدماً فيعكر عليه أمنه وسلامه.. وفي تحديد حجم حصيات الرجم، وكيفية الرجم لألفينا درساً آخر وعبرة جديدة تضم إلى سابقتها، ليتعلم منها المرء كيف يحافظ على سلامة إخوانه من المسلمين قبل أن يؤدي الشعيرة. وليس الأمان حكراً على الحجيج وحدهم في هذه البقعة المطهرة، بل إن للحيوان والنبات حظاً ونصيباً من ذلك. فقد حرم على المحرم الصيد وكذا حرم عليه قطع النبات.

حريّ بالمسلم أن يتأمل هذه الراية البيضاء التي استظلت بها مكة المكرمة في زمن مقدر، زمن المحبة والسلام والرفق بالغير، إنها أنجم تتلألأ في سمائها، إنها مكرمة الضيافة كي يعايش المسلم رحلة الأمن والطمأنينة والمحبة، فيجد في ذلك ما يخالف مفهوم العادة، فيحاول أن يتزود في رحلته إلى دياره بشيء يترك أثره في نفسه، فينعكس على أهل بيته. وما ذلك إلا صدى يتردد في الأزمان عبر رحلة الأيام لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ بل لقد جعل سبحانه الأمن والسلام قرآنا يتلى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(٢).

الحج رحلة الصبر والامتثال:

وهو أيضاً رحلة الصبر والامتثال. الصبر على فراق الأبناء والزوج، الصبر على متاعب السفر ومشاقه، الصبر على الانتقال من بيت مجهز معد لمواجهة الحرارة والبرودة إلى خيمة في العراء وحرارة محرقة في أغلب أوقات العام. الصبر على طعام واحد حتى لا يتعرض لمتاعب الإخراج. الصبر على المبيت في

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

مخيم بين أجناس شتى وعادات متباينة. كل صهرته الحرارة العالية والطبيعة الجافة، وطاقات الجهد المستنفذة وطول الإقامة بلا اشتغال بتلفاز أو مذياع أو لعب، فترك الوقت مساحات شاسعة من الفكر المكدود المرهق، لكي يبدأ التأمل والتمعن، هذا يغسل وجهه بعين الماء الذي يتطهر به، هذا ينام، هذا يصلي، هذا يقرأ، هذا غاضب متهور... هذا!!

إن كل دقيقة تمر على الحاج اختبار لصبره ومقدار تحمله، وتدريب على كبح جماح النفس الذي جعل الله عليه الجزاء الأوفى، بل جعل ثواب الحج في ضبط النفس وإلجامها.

والدليل على أن الصبر والامتثال أمر مقصود من هذه الرحلة التهذيبية، أن المرء ما إن يعود إلى بلاده، ويقرب موعد الحج من العام التالي إلا ويزداد شوقاً وتعلقاً بالبيت، ويطير بقلب مفعم بالحب إلى هذه الرحاب الطاهرة، لا يذكر شيئاً مما عاناه، وإن بقي أثر فلا قيمة له بجوار هذا الحب الكبير الذي احتوى قلبه وفؤاده مع أنه من المعتاد أن الإنسان يكره مجرد التفكير في أمر أصابه منه أذى، ألا يدعو هذا إلى التأمل!؟

الحج رحلة التعارف والعلاقات:

إذ كيف تتفاعل هذه الأمة الإسلامية المترامية الأطراف في أنحاء المعمورة مع ذلك النداء العام العالمي الذي يشمل الناس كل الناس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ...﴾[1].

لو كانت تؤدي كل فرائضها الدينية في موطنها ومحالها كالصلاة والصوم والزكاة، أما يكون التعارف والتلاقي عندئذٍ محدوداً في نطاق الحي، والبلدة، والبلدان الكبيرة، والعواصم على أكثر تقدير. ولن يكون في الغالب الأعم ـ مع هذه المحدودية ـ إلا للقليل من الناس الذين تربطهم بهذا التوسع المحدود بعض المصالح.

فالمجال الأكبر إذن لمعايشة هذا النداء والتجاوب معه لم يتوفر لأمة الإسلام بمعناه الصحيح، إلا في تلك الكيفية وذلك الإطار الذي شرعت فيه فريضة

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

الحج. والسفر والانتقال فيه من كل البقاع والأصقاع والتوجه إلى مجال يكون فيه ذلك التجمع الكبير والذي أطلق عليه في الكتاب العزيز الحج أصبح ديناً وعبادة يتقرب بها إلى الله، وأصبح هذا التوجه ركناً إسلامياً يكمل به الدين، وفيه وبسببه يرى المؤمن إخوته المؤمنين من مشارق الأرض ومغاربها. وفيه يتم اللقاء والتعارف، وفيه يدرس ـ على الطبيعة ـ أخلاق الناس وأذواقهم، والعديد من عاداتهم، وفيه يسمع بأذنه شتيتاً من اللغات واللهجات. وفيه يرى التمايز في الألوان والهيئات من شتى بقاع الأرض. ومن خلال هذه المعايشة يتذوق ويتفهم قول الحق سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾[2]، وقوله جل وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[3].

في وسط هذه الرحلة الروحانية تتلاقى الأرواح، ويتبادل الناس المنافع، ويتم التعارف، وما يكاد الناس ينتهون من أداء المناسك وما تخلله من لقاءات لا تحصى إلا ويتبادل الحجاج العناوين، وتبدأ بينهم زيارات أو مراسلات أو تعاملات يربو منها ما يربو على مدار العام، ويخبو منها ما يخبو، وتقوى العلاقات والروابط بين أقوام وتضعف أو تتلاشى عند آخرين، وكأنه محصول سنة وغراس عام، فما يكاد يهل العام الجديد بموسم حجه ونسكه إلا ويتكرر الغراس، ويجني الناس المحصول والثمار، تعارفات جديدة، وتجديد علاقات قديمة، وتبادل علاقات، وحبّاً وصلات، ومنافع وموادات. الله أكبر إنها «رحلة التعارف» والترابط والتعاطف في ظلال الله وفي كنف بيته وحرمه الأمين.

الحج رحلة التلاحم والانصهار والوحدة:

والحج كذلك رحلة التلاحم والانصهار والوحدة، فقد لاحظنا فيما سلف أن إرادة الله وحكمته البالغة شاءت للحج أن يتجاوز الأماكن الخاصة والبلاد، وعموم الأرض إلى مكان واحد هو أرض النسك في رحاب الكعبة المشرفة،

(١) سورة الروم، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الروم، الآية: ٢٥.

حيث كلف خليل الرحمٰن أن يرفع قواعدها للطائفين والقائمين والعاكفين والركع السجود.

وكما روعيت وحدة المكان هكذا، روعيت وحدة الزمان، فقد كان بالإمكان أن يكون الحج مثل العمرة له زمن مفتوح طوال العام، ومن استطاعه أو واتته ظروفه شد رحاله لهذه الفريضة في الوقت الذي يناسبه من أشهر العام كله.

ولكننا رأينا الحكمة الإلٰهية وسمعناها تنادي النفوس الواعية ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾[1]، ليعلم قصاد بيت الله والناوون استكمال أركان دينهم بأداء هذه الفريضة، أن من شروط صحتها وقبولها وقوعها في زمن خاص وأشهر محدودة معلومة، كي تتحقق الجماعية بهذا الحشد الحاشد، وفي صورة هذا الجمع العالمي العجيب. وبهذا وحده يكون التلاقي والتزاحم والانصهار والتلاحم فتكون الوحدة والتراحم.

ولم يقف الأمر عند وحدة المكان والزمان، فلم يقف عند تجميع الناس في أرض مكة المكرمة أو منى أو عرفات، ولم يقف عند تجميع الناس في أشهر معلومات، والمعنى بها «شوال وذو القعدة وحتى نهاية أيام منى من ذي الحجة» لتكون هذه الأقواس المكانية والزمانية كفيلة بحصول الاندماج والتوحد. لا أنها أقواس رغم تحديدها فإنها لا تزال فسيحة ولا بد لها من عامل ثالث يقوي فاعليتها، ويبرز أثرها حتى تؤدي دورها المنشود في نجاح وضمان، وتثمر إيجابيتها في تحقيق ويقين. ومن هنا يضاف ذلك البعد الثالث ليكمل به المثلث فتكتمل الصورة والفائدة، ذلكم هو «وحدة الأداء» حيث لا يترك الناس بعد هذا التجمع ليهيموا في تلك المواطن على مدى هذه الأشهر المعلومات. بل إننا نرى أن قياد الناس بعد التجميع في هذه الأمكنة، وفي هذه الأزمنة يكون تحت لواء واحد. ففي اليوم الثامن من ذي الحجة تبدأ ساعة الصفر لتحرك جماعي يضم الظاعنين والمقيمين والمبكرين والمتأخرين، فينقلب الجميع من مكة وغيرها إلى منى ليقيموا بها يوماً يؤدون فيه خمس صلوات بدءاً بالظهر وختماً بفجر اليوم التاسع «يوم عرفة» ثم يكلف الجيش اللجب بحاجاته وكل ضرورياته بالتوجه إلى عرفات في ساعة الإسفار، ويتحرك الركب الهائل العظيم في زمن واحد، ويتم له

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

التجمع واللقاء بعرفات ليقيم يومه في حالة تأهب ويقظة واستحضار بين موجات من الروحانية العارمة في تلبية وتهليل وتلاوة تنزيل، ودعاء وتأمين، ودموع وحنين، وابتهال ورجاء، واستغفار ونداء، وضراعة وبكاء.. يا لله.. كل الحجيج هنا في موقف واحد، وهذا حالهم وكأنهم في يوم المحشر، ولكنهم في يوم الحج الأكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

ونفحات الحق تترى وتتجلى على عباده وضيوفه مغفرة ورحمة وعطاء ونعمة، وحطاً للأوزار والسيئات، ورفعاً للمنازل والحسنات، جمع في يوم تكشف به الظلم. وتباهي به أمة الإسلام غيرها من الأمم. وببركة هذا التزاحم والتلاحم والتراحم تأتي رحمة الله المهداة، ونعمته المسداة، أماناً واطمئناناً، وعزاً ورضواناً، ونصراً ومجداً خالداً، وفخراً وسؤدداً شرف به من شرف حين ينادي رب هذا الجمع عباده المؤمنين: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، وما هي إلا ساعات حتى يرخي الليل سدوله، فيتحول هذا الجمع إلى مزدلفة، ليبيتوا، ثم إلى منى يتجهون.. الكل في صعيد واحد. يتحركون بحركة رجل واحد، ولا تزال أصوات التسبيح والحمد والتكبير والدعاء والتلبية تدوي في الآفاق، وتتردد في الأرجاء والأجواء، وما تكاد تبزغ شمس اليوم العاشر إلا وترى الجموع والحشود وقد تحولت إلى صعيد الجمرات تؤدي نسك الرجم، ثم تولي شطر الكعبة المعظمة، لأداء الإفاضة فلا تجد موطئاً لقدم بعد أن كانت بالأمس خلاء، ومن ثم يعود الناس إلى أرض منى ليقيموا فيها جميعاً ليالي معدودات، والناس.. كل الناس.. فيها يقيمون ومنها ينصرفون.

إن وحدة الأداء هذه، لتمثل حجر الزاوية بما فيها من أسرار وحكم تتفق مع وحدة الأمة، وتعمل على غرسها وإيجادها مع وحدة الزمان والمكان. كما يتفق المثلث بأبعاده الثلاثة «الزمان والمكان والأداء» في تفكير الناس من قصاد بيت الله بذلك الرمز الخالد الذي جعله الله في الأرض رمز وحدتهم فجاءوه قاصدين، وقاموا به طائفين، ومنه كانوا لباقي المناسك صادرين، وإليه رجعوا عائدين، وقبل سفرهم لأوطانهم طافوا به مودعين.. أليس هذا الرمز نفسه هو الذي به

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

يرتبطون، وفي بلادهم البعيدة أثناء صلاتهم له يتجهون، بل إن المسلم في أي مجال من الأرض يعلم أنه من السنة أن يجعل هذا البيت العظيم قبلته، ليس فقط في صلاته بل وفي شؤونه وعموم حياته، عندما يشرع في نومه، وعند جلسته حين يتلو قرآنه أو ينادي بدعوته في مرضه وصحته، بل وحتى في موته ورقدته، وعند الصلاة عليه وفي قبره ووحدته، هذا بالإضافة إلى ممارسته اليومية المتكررة حين يتوجه إلى هذا البيت العتيق خمس مرات في صلواته المفروضة حيثما كان وأينما حل، وكذا في نوافله في نهاره وليله. وكم هو أثر هذا التذكر العملي للناس باستدعائهم من تلك المجالات التعاملية التي نوّهنا بشيء أو أمثلة منها، إنه تعامل مبناه على الإيمان بالغيب ثم مجرد التصور النظري والسلوك التسليمي باعتبارهم مسلمين، استدعاؤهم من هذا البعد التصوري أو التخيلي إلى قرب المشاهدة حتى يكونوا أمام هذا الرمز التوحيد العظيم، فيرونه على الطبيعة رأي العين، يطوفون حوله بأجسادهم وأنفسهم وأرواحهم، ويستلمونه بأيديهم وشفاههم تسليماً وتقبيلاً وشوقاً وهياماً ومحبة. ويشارك المرء غيره من الجموع الغفيرة بالمشاعر الفوارة، والمدامع الفياضة المدرارة، ويدور الجميع حول هذه الكعبة المشرفة بالتوجه والابتهال، إلى رب البيت ذي العزة والجلال، دورة ودورة ودورات تأكيداً لمعاني القرب والاندماج والارتباط. كيف لا وقد وضعه الله في الأرض منارة لعباده هداية وبركة منذ عمر الأرض بآدم عليه السلام، واستخلفه وذريته فيها، وصدق ربنا العظيم حين يوضح لنا هذه النعمة الكبرى بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

إن هذا الاقتراب من ذلك الرمز المبارك، وإتاحة الفرصة لكل مستطيع على وجه الأرض، أن يباشره بهذه المخالطة، أو يقاربه بهذه المباشرة، ليرى ويرى، ويشعر بالناس من إخوة الإيمان ويشعروا به، ويستزيد من بركات البيت وهداه، ويأخذ حظه من منابع الخير والنور والهدى. بجسمه، وروحه، ونفسه، وقلبه، وعقله، ووجدانه، وسمعه وأحاسيسه، وبصره وبصيرته، حتى يعود إلى أوطانه خلقاً آخر، خلقاً جديداً، ألمح عنه الرسول الكريم ﷺ بقوله: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[2].

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الحج ٢/٧٦.

كان قبل حجه يعيش شعوراً محلياً إقليمياً، وعاد بعد حجه ليصبح شعوره عاماً إسلامياً عالمياً. كان إحساسه فرداً بين قبيلة أو بلدة أو مدينة، ثم تحول إلى الإحساس بالانتماء إلى ما هو أرحب وأعظم، فهو أو هي أخ أو أخت لإخوة وأخوات من مئات الملايين يشاركونهما الإيمان والعقيدة. أصبحوا جزءاً من أمة مترامية الأطراف تتبادل المشاعر في الآمال والآلام، يدعو بعضها لبعض بظهر الغيب بكل الخير والنصرة. أصبحوا أفراداً في أسرة كونية، وأعضاء لها فاعليتها في أمة الخير والخيرية.. وقد سمعوا بأنفسهم وشاهدوا شهادة العيان جموع المسلمين في طوافهم وسعيهم وصلاتهم ووقوفهم بعرفة وكل مواطن الدعاء والرجاء. لا يكاد أحد منهم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم يتوجه بالدعاء لمولاه إلا وقد جعل منه نصيباً وافياً لإخوانه المسلمين في أنحاء المعمورة من رآه منهم ومن لم يره، يدعو لهم مع نفسه كنفسه، من حضر منهم ومن لم يحضر، من عرف ومن لم يعرف، فإنه يدعو الله علام الغيوب الذي ألّف بين هذه القلوب ببركة هذا الجمع في هذا النسك العظيم.

إنها حقاً رحلة الوحدة الكبرى، رحلة التلاحم والتراحم لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[1].

(١) حكمة الحج عن خطبة ألقيت بالمركز الإسلامي بالبرازيل لفضيلة الشيخ عبد العزيز العناني.

obeikandl.com